

فن السباكة

ماذا أقول عن المعمار المصري الذى يرجع تاريخه إلى آلاف السنين ، و تشهد بروعته ودقته تلك الآثار الشامخة التى مازالت تقوم أمامنا ، وأمام العالم كله ، شاهدة على كفاءة المهندس المصري القديم ، ودقة الصانع المصري القديم ؟! لا شئ يقال أكثر من أن التصميم الهندسى قد تم وضعه على أكمل وجه ، وأن التنفيذ قد اكتمل إنجازة بمنتهى المهارة ، فلا نكاد نجد عيبا هنا ، أو نقصا هناك ، بل على العكس كل ما ذراه يدفعنا إلى المانحذاء إعجابا وتقديرا لأجدادنا العظام .

لماذا إذن أقف أمام العمارات الحديثة فتقع عيني أول ما تقع على مواسير الصرف الصحى التى تطل منها كئيبة المنظر ، ملفوفة بالصدأ ، وحولها على الجدران بقع سرطانية تؤذن بالخراب وتشير إلى قرب الانهيار ؟! إننى لا أجد فى هذا المنظر إلّا تخطيطا هندسيا ، غاية فى السوء وقلة الذوق ، وخاصة حين تطل مواسير الصرف على الشوارع ، وتكون على مرأى من عيون المارة . أما تنفيذها فتقف وراءه ضماير خربة ، وسواعد غير مدربة ، ومن المؤكد أنها لم تعط للمكان حقه من العمل والأدوات اللازمة لاستمراره سليما معافى . المسئولية إذن تتوزع بين المهندس والمقاول والسباك ، وقبلهم بالطبع صاحب العمارة الذى لا ينظر إلّا تحت قدميه ، ولما يكلف نفسه أن يشاهد عمارته وقد امتلأت بلطخات الصرف الصحى ، وقامت بين المساكن كيانا مشوه الملامح ، ممسوخ التكوين .

إننى أتساءل : لماذا السباكة لدينا متدنية إلى هذا الحد ؟ هل لأننا أهملنا دراسة أصولها ، والتدريب على أعمالها ، وتطوير أدواتها ؟ أم هل لأننا لم نهى الفرصة للعاملين فيها بزيارة الدول المتقدمة ليتعرفوا على تجاربها فى هذا الفن الهام ، الذى لا تكتمل بدونه العمارة الحديثة ؟ أم هل لأننا نظرنا إلى مهنة السباك ومازلنا ننظر إليها نظرة استعلاء ، حتى فاجأنا صاحبها بأهميته ، عندما راح يطلب منا مبالغ طائلة لقاء إصلاح حنفية ، أو تسليك ماسورة ؟ أم هل لأننا لم ننشئ لها تخصصا جامعا أو مهنيا مثل باقى التخصصات الأقل أهمية فى حياتنا اليومية ؟

فى رأيى أن هذا كله قد حدث . وهو السبب وراء الضعف الواضح فى هذه المهنة ، التى ينبغى أن يعاد النظر إليها باعتبارها فنا مكتملا لباقى فنون العمارة ، التى تقف وراء التشوهات التى تحدث فى المبنى قبل أن ينقضى عام أو عامان على إنشائه . والذى أدهشنى بحق هو أمر المهندسين ، الذين يصممون أو يشرفون على التنفيذ ، ولما يبدو عليهم أنهم مستاءون لرؤية عملهم وهو يشوه بهذه الصورة . وأقول لنفسى : أين هذا من عمل أجدادنا الفراعنة الذين تركوا لنا آثارهم الرائعة بدون أدنى عيب أو تشويه ؟!